الفصل الرابع

﴿ الحديقة ﴾

والظاهر ان حليماً ورفيقه قد ناما قليلاً في الفندق بعد الغداء ولذلك لم يخرجا منه الا بعد العصر . فاقبلا نحو الحديقة وكانت غاصة بالناس من كل الطبقات

وكان في الحديقة ثلاث قاعات كبرى كل واحدة منها قائمة في احد جوانب الحديقة . فكان كل فريق من سكان مدينة العلم والدين والمال يجتمع في احدى هذه القاعات للبحث في شؤونهم واحوالهم . فكانت قاعة اهل المال عباره عن بورصة صغيرة وقاعة اهل العلم عبارة عن مكتبة كبيرة . وقاعة اهل الدين نصفها مكتبة ونصفها مجتمع للحديث

فلما دخل حليم ورفيقه الى الحديقة شاهدا الناس منتشرين في اطرافها بين اشجارها الجميلة وازهارها العطرية واكثرهم يتحادثون ويتجادلون بحدّة . غير ان دخول هذين الزائرين الغريبين الى الحديقة نبّه المتنزهين فيها اليهما فصاروا يقلبون انظارهم في هيئتهما وملابسهما . فقال حليم حينئذ لرفيقه : ان القوم قد التفتوا الينا فاذا سألك احد عن اسمي فقل له انني ادعى جميلاً وصناعتي التجارة وقد جئنا نستبضع من مدينة المال . واياك ان تذكر لاحد اسمي فانني اكره الرسميات في سياحتي هذه

وبينما كان حليم يوصي رفيقه بهذا الامر على مقربة من قاعة اهل العلم كان ثلاثة شبان وقوفاً قرب هذه القاعة وهم يتفرسون بهما جيداً . ثم سمع احدهم يقول لا شك انه هو لانني شاهدت صورته قبل اليوم في احدى مجلاتنا . فقال الآخر لا يبعد ان يكون هو بعينه فان منظره اللطيف الهادئ لا يُكذّب شهرته الواسعة . وحينئذ انفرد المتكلم الاول عن رفيقيه وسار نحو حليم وصدبقه بخطى واسعة وهو يبتسم

فلما رآه حليم قادماً بهذه الهيئة لم يشك في كونه قادماً لمخاطبته فتشاغل عنه بمحادثة رفيقه . اما الشاب القادم فانه لما صار على مقربة منه مدّ يده اليه مسلماً وقال باحترام وبشاشة : ارجو ان تسمح لي بسوءال ياسيدي . هل تريد ان تشرّفني بمعرفتك . فتبسم حليم قليلاً لانه كره الكذب ثم اجاب : نحن ضيوف يا سيدي في المدن الثلاث الجميلة وقد جئنا لمشاهدتها والاستفادة من اهلها الكرام . فقال الشاب نعم لا ريب عندي في انكم ضيوف ولكني اول ما وقع نظري على جنابك تذكّرت انني شاهدت هذا الوجه قبل الآن

في احدى مجلاّتنا . أَلست جنابك الخواجا حليم المصوّر الطائر الصيت

فلما رأى حليم انهم عرفوه ضحك واجاب : ان ذكاءكم في هذه البلاد غريب ياسيدى فانكم تعرفون الرجل من غير ان تعرفوه

فلم يتمالك الشاب ان عاد وثبًا الى رفيقيه واخبرهم ان ذلك الضيف هو المصوّر حليم نفسه . فانتشر هذا الخبر بسرعة البرق في الحديقة كلها . فصار الناس يتداعون لمشاهدة الرسام الطائر الصيت الذي بارى في هذا الفن اشهر الرسامين وطارت شهرته في جميع اقطار العالم . ولم تمضِ دقيقتان حتى اجتمع كل من في الحديقة من اهل العلم والمال والدين حول حليم ورفيقه وصارت الاعناق تتطاول اليهما من كل صوب . فازداد الورد في وجنتي حليم خجلاً من ذلك لانه كان كثير التواضع قليل الجرأة على مقابلة آلهة الشهرة . ولكنه لم يكن ضعيفًا الى حد الجبن . ولذلك رفع رأسه بعد ذلك الحياء بجرأة وبشاشة وحيّا بهزّ رأسه باسماً . وكان الجمع الذي حوله في حركة في ذلك الحين ثم انفرد منهم خمسة بينهم رجال من اهل المال والعلم والدين وتقدموا نحوه . فتبعهم باقي الجمع زاحفين نحو حليم كالجند وهم كالبناء المرصوص . فخطا حينئذ حليم نحوهم بخطى واسعة وهزّ الايدي التي كانت تُمدُّ اليه من كل جانب كانها اغصان مشتبكة

ومنذا هذا الحين فقد حليم نصف لذة السفر لانه صار مقيدًا بعد ان كان مطلقًا يروح ويجيء كما يشاء . الا ان خسارته هذه لا تعادل الفائدة التي استفادها في ساعة واحدة بعد ان عرفه اهل هذه البلاد . فانه صار دفعة واحدة في وسطهم فاصبح قادرًا على الوقوف على كل ما اراد الوقوف عليه منهم

وبعد ان جلس حليم واستراح برهة حدثهم في اثنائها عن سفره وما شاهده في المدن الثلاث همّ بالاستئذان فدنا منه الشاب الذي كان اول من عرفه وقال : لي على جميع اخواني حق التقدم لانني كنت اول من تشرف بمعرفتك . فانا ارجو ان تتخذني صديقًا ورفيقًا لك في هذه الديار لادلّك في سياحتك . فشكر له حليم لطفه وادبه . ثم نهض يطلب الخروج من الحديقة وكل جوارحه تُمناه . فهمس ذلك الشاب في اذنه قائلاً : أَلا تحضر الاجتماع الليلة في الحديقة . فقال حليم واي اجتماع . فقال الشاب : ان الليالي الثلاث القادمة ليالي في غاية الاهمية . فان السكان عزموا على الاجتماع فيها ثلاث مرات لحلّ بعض المشاكل التي بينهم والتي هي سبب النزاع والخلاف بين طبقاتهم . ولا ريب انّ خراب مدننا الثلاث وعمرانها يتوقفان على نتيجة هذه الاجتماعات . والليلة الاولى مخصوصة بالمال .

والليلة الثانية بالعلم . والليلة الثالثة بالدين ـ فقال حليم ساحضر هذه الاجتماعات لا محالة . ثم ودّع وخرج مع رفيقيه وهو يقول في نفسه انه قد جاء في احسن الاوقات واهمها

الفصل الخامس

تمهيد الجلسات الثلاث

« رجاء الشيخ الرئيس »
وشكاوى اهل العلم والدين والمال

وفي المساء برزت الحديقة بالانوار الساطعة واقبل الناس عليها من الجهات الثلاث واكثرهم سكوت كانهم يفكرون في امر عظيم . وكانت اشكال ملابسهم تدل على انهم من طبقات مختلفة بين تجار وعمال واهل علم واهل دين . وكان كل فريق مشغولاً عن الفريق الآخر بمناجاة حزبه همساً استعداداً للجدال العلني الشديد . وما دخلت الساعة التاسعة مساء حتى غصت الحديقة بالناس على اتساعها وجلسوا ينتظرون . وكان حليم ورفيقه قد اختارا مقعداً في زاوية مظلمة قريبة من دكة الرئيس فكانا يشاهدان الحاضرين دون ان يشاهدهما احد

وفي الساعة التاسعة والدقيقة الاولى جلس رئيس ذلك الاجتماع على كرسيه وهو رئيس جمهورية المدن الثلاث . وكان شيخا جليلاً في نحو الثمانين من العمر وهو بقية الشيوخ الذين عاصروا الشيخ سليمان مؤسس هذه المدن . فلما سكنت الضوضاء اخذ يقول

ايها الابناء الاعزاء

قد عزمتم على عقد ثلاثة اجتماعات كبرى لتتباحثوا في مسائلكم المهمة والمشاكل التي نغّصت عيشكم وعطّلت اشغالكم وقسمت قلوبكم وعيالكم . فيسرّني انا حاكمكم وابوكم ان تؤدي هذه الاجتماعات الى قطع كل ما بينكم من اسباب النزاع والخلاف حرصاً على سعادتكم وعلى عمران مدننا الثلاث التي تعبنا في انشائها وترقية شؤونها . انما قبل الشروع في المباحثة اتمنى من صميم قلبي امرًا . وهو ان يجتنب كل فريق منكم في اثناء كلامه كل قول يسوء الآخر فان الانسان يستطيع ان يصرّح بادب ولطف بكل ما توجب عليه مصلحته التصريح به . ولا يجدي العدوان والشدة نفعًا . وانني اسال الله ان يوفق اعمالكم ويسدّد آراءكم وينير عقولكم